طالما حرت ان اعرف الدافع الذي جعلني اختار التخصص في الجراحة التجميلية ، لأعمل في بلد ما يزال ايمان اهله بمعجزات المشرط ضعيفاً ، فهم يألفون انوفهم الكبيرة او ذقونهم المنبعجة ، ولا يعبأون كثيراً لو عاجلتهم الشيخوخة بتلك الجيوب التي تتمركز تحت عيونهم .

أجل لا تسلني كيف ، قد يكون الحافز ظروف الحرب التي جعلت المجلات تسرف في التحدث عن اعاجيب المشرط او هي الأفلام التي كان ابطالها نفراً من مشوهي الحرب ، او هي عوامل اخرى صغيرة جعلتني اختار ان اشق مستقبلي في ذلك الطريق رغم محاولة اصدقائي ووالدي في ثنيي عن هذا بمختلف اساليب التنكيت . ولكنني وجدت نفسي رغم محاولتهم توجيهي الى لون مختلف من التخصص وجدتني في المانيا ادرس واحلم بعيادة تكون واحة للمشوهين والقبيحات .

ولما عدت بعد عامين لم يطل بي الأمر حتى تلقفتني عيادة كبيرة بدأت عملي فيها كطبيب مساعد يستريح الى ان يجري مشرطه فتخرج الوجوه من بين يديه نسخاً منقحة .

حتى رأيته يوماً ...

من يكون ؟

لعلكم تعرفونه . فهو ليس اكثر من صبي صغير يحمل يداً شوهاء .

كنت انزل من سيارة تاكسي ومعي صديقة شئت ان امضي وإياها سهرة في احد نوادي الليل بالزيتونة ، وكنت امد لها يدي اساعدها على النزول حين اعترضتني يد غريبة وصوت يقول : «خمسة قروش يا سيدي لعشائي .»

واجفلت . كنت اعرف اليد ... اعرفها جيداً .

ومددت يداً مضطربة الى جيبي والقيت في الكف المفتوحة بما تيسر ، ودخلت وصديقتي لنستقر على مائدة ...

قد لا تبدو ثمة ضرورة لاضطرابي ، وقد اعتدنا ان نرى في كل منعطف شحاذاً ، ولكنني لم استطع ان اسيطر على نفسي ، وظل شكل اليد الشوهاء ماثلا امام عيني يكاد يحجب عني عيني صديقتي التي كنت ادور وإياها ارقصها باوتوماتيكية ...

عهدي بهذه اليد قديم ... قديم قبل ان اذهب الى المانيا للتخصص .

وتذكرت كيف كان الصبي يطالعنا ونحن تلاميذ بيده تلك ، يحملها نشيطاً من رأس بيروت الى اطراف الشوارع المتفرعة عنه ، كأنما هو يحمل الناس مسؤولية عاهته ويذكرهم بكل مافي الحياة من قسوة واسراف في البشاعة احياناً .

— خمسة قروش يا سيدي افطر بها ، خمسة قروش ياسيدي لغدائي ، الا ترى يدي العاجزة ؟

وكان عسيراً علينا ان نعطي دائماً ، فقد كنا لا نملك اكثر من المصروف الزهيد الذي نأخذه من آبائنا ، وكنت كلما رأيته تتقاتل على سطح احساساتي مشاعر كثيرة ، فاصرفه عني متقززاً لمنظر يده مشفقاً عليه وعلى نفسي من هذا الامتحان الحامض لأنسانيتي .

ولم يكن هذا كل شيء ...

ذات صباح كنت انتظر سيارة اجرة تحملني الى الكلية وتخلصني من زخة مطر مفاجئة ، فمرت سيارة استوقفتها وهممت برفع رجلي اليها ، واذا بشيء يجذبني من كمي فتطلعت ، ورأيت الفتى مبللا كالصوص يطالبني بخمسة قروش ليفطر .

ورفعت يدي مغيظاً واهويت بها على يده الشوهاء ... لاادري لماذا كنت قاسياً فظاً : الأني كنت مستعجلا فلا يفوتني الأمتحان ، أم ان انعدام الذوق في الولد وافتقاره الى الحدس الذي يعلمه متى يمكن له ان يشحذ قد غاظني . ؟ لا اعرف ! الا انني ندمت ، رأيت نفسي يومئذ احقر من ان استحق شرف الرداء الأبيض ، وظلت صورة يده المكرنشة المشدودة الجلد عند المرفق من جهة الأنسية تتراقص على اوراق الأمتحان المبسوطة امامي .

ولم استطع ان اكتب شيئاً . كنت اقول ماذا لو وقع الفتى على الأرض ثم داسته واحدة من السيارات الكثيرة المسرعة ، الا اكون مسؤولا عن ازهاق روح ؟

ولم استرح من ايلام نفسي حتى فتشت عليه في المساء ونقدته ليرة كاملة مسحت بها حقده علي .

وفي تلك الليلة لم انم بسهولة ، ولما اغلقت عيني بعد ارق طويل حلمت باليد المكشوفة الشوهاء التي لاتنبسط والتي تظل ابداً زاوية قائمة ، رأيتها في منامي ضخمة متكبرة تمتد الى وجهي وتصفعني .

أجل هكذا رأيتها في حلمي ... كما اتمثلها الساعة ...

وكنت اتذكر هذه التفاصيل ، وانا لا افتأ ادور بفتاتي ، ثم وقفت فجأة كمن يقول « وجدتها » .

— الهذا ذهبت الى المانيا اتعلم جراحة التجميل ؟.. هل كانت اليد الشوهاء يد القدر التي رسمت لي ان اكون حامل مشرط دون خيار مني ؟ صدقوني انني خائر ...

وانتهت سهرتي والقيت بنفسي الى الفراش وانا ما زلت افكر فيه ...

وبعد ايام رأيته يدور في شارع رئيسي .

واقتربت منه فلم يعرفني ولاحظت ان جسمه قد طال وان وجهه ازداد هزالا ومددت له خمسة قروش شفعتها بابتسامة ردها لي ، بعد ان تذكر وجهي وسألته عن حاله فقال :

— بخير . ان اثارة شفقة الاغراب الكثيرين هنا ليست عسيرة . فانا ما اكاد ارفع يدي اليهم حتى يلقوا الي بربع ليرة او يزيد ... انني اكسب اكثر من ذي قبل .

وضحكت وشاركني الفتى بابتسامة كانت تشوبها كآبة فيلسوف صغير . ثم مضيت في سبيلي .

ولم امش طويلا حتى توقفت اذ تذكرت امراً ...

كيف لم افطن قبل اللحظة الى انني قادر على ان اغير مصير الفتى ؟ .. اوليس لي مشرطي الساحر ؟ قطعة جلد من فخذه تحل محل قطعة الجلد المكرنشة ، وتختفي الى الابد اليد الشوهاء ، وينقلب الشحاذ اللجوج عاملا صغيراً او بائع يانصيب او اي شيء غير الشحاذة ؟

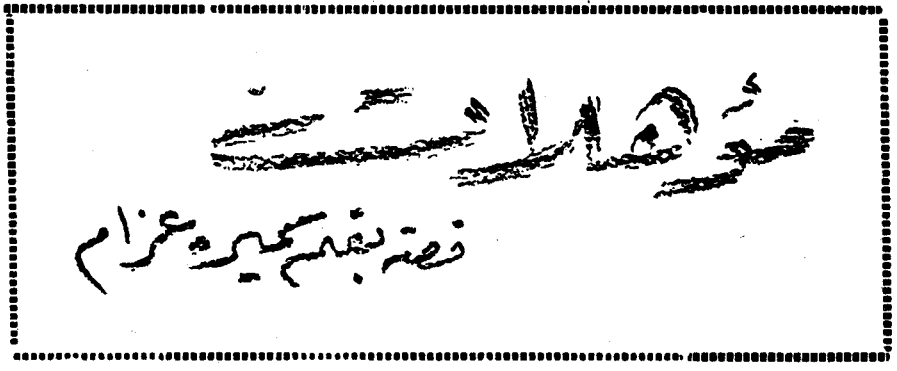

الغائبون

لفّي عباءتك الرشيقةَ ، انني
سأعود للوادي الذليل
وادي النخيل ،
سأعود كالفجر المرفِّ على السنابل والحقول
كالغيم في آذارَ ، كالموج الحنون
كالظل تحت جدائل السعف المترّبة الذيول
كالحق عند مآبه بيد اليقين .

* * *

لفي العباءةَ ، جنتي تحت العباءَة ، يا سُعاد
تحت الضلوع ، بقلبك الدافي ، إذاً
لفي العباءة ، جنتي ، أنا عائدٌ
للدفء من برد السنين .

* * *

لو تعلمين
ماذا تخبئه قلوبُ الغائبين
للغائبين ،

ألفٌ من القصص الجديدة ، كلها
شيءٌ جديد ،
سأقصها لك يا سعاد ،
قصص النضال اليعربي ، مع السنين
سأقصها لك يا سعاد
أيام لا يتساءلون ، من انتَ ، أو ماذا تريد ؟ ؟
أيام أخطرُ في شوارع بلدتي ، وكما أريد
أنا والصحابُ العائدونَ ، وهُمْ وهم
لا يسألون
وهم وهم لا ينطقون
وهم وهم لا يملكون تساؤلاً عما نريد .

* * *

سأعود .. سيدتي .. أعود .
وسينتهي العهد القديم .
عهد العظام الحاقدين على الجديد
عهد التشرد ، والتجبر ، والخضوع
عهد الذئاب مع القطيع .

نيقوسيا (قبرص)

ابو المكارم عبد الله

وتصورت الفتى يخرج من تحت مشرطي يمسك يدي التي ضربته مرة فيقبلها ويغسلها بدموعه ثم يخرج من عندي ليرى الحياة وجهاً غير مكرنش .

والتفت فلم اجده . كان قد ابتلعته عطفة جانبية ، ومن ذلك اليوم بدأت أفتش عنه ، حتى رأيته ففاجأته بربع ليرة وضعتها في يده وقلت :

– هل تعلم بانني صرت طبيباً ؟

– كيف لي ان اعرف ؟ لقد كدت انساك حتى رأيتك .

– ان بوسعي ان اشفي يدك .

قلت هذا وامسكت بيده احاول بسطها ، فاجفل وخبأها وراء ظهره .

– لاتخف . عملية سهلة للغاية وستصبح يدك سليمة كالثانية .

و وقظر الي بعينين مرتابتين ما لبث ان خفضهما وهز اكتافه ومشى فتبعته انا اصرخ :

– لاتكن ابله ، هذه فرصة من ذهب ولن تخسر شيئاً .

وتوقف ليسألني :

– وهل يسوؤك ان ترى يدي هكذا ؟

– لايسوؤني ، ولكنني اعتقدت انني اؤدي لك عوناً كبيراً .

وفكر قليلا ثم قال :

– لاأجرؤ ان اقول نعم ، . قبل ان اسأل ابي .

– اولك أب ؟

– أب واخوان اثنان ... وهناك ايضاً زوجة ابي . ساسألهم ، واعود اليك لاخبرك النتيجة .

وانصرف عني وانا احس بانني تخففت من بعض ما احمله في نفسي .

ومضت ايام دون ان انجح في رؤية الصبي حتى صادفته وانا مع جمع من اصحابي امام دار السينما فتركتهم واتجهت اليه اقول :

– هيه ! لماذا لم أر وجهك ؟ هل سألت أباك ؟

– أجل

– وماذا قال ؟

– لم يكن هو الذي اجاب بل زوجته .

– حسناً ، وما هو جوابها ؟

– قالت بعد ان القت رأسها الى وراء في ضحكة عالية شاركها فيها ابي «لقد اصبح التعس يفكر بجماله ! قل للطبيب ياحمار ان يقطعها لك من الكتف ، او كنت تفلح بان تكسب قرشاً من المحسنين لولا يدك هذه ؟ الا ترى اخويك البليدين لا يجمعان معاً نصف ما تكسبه وحدك في يوم ؟

اجل لا فائدة يا سيدي ... دعني وشأني او اعطني – اذا شئت – خمسة قروش أتعشى بها ! !

سميرة عزام